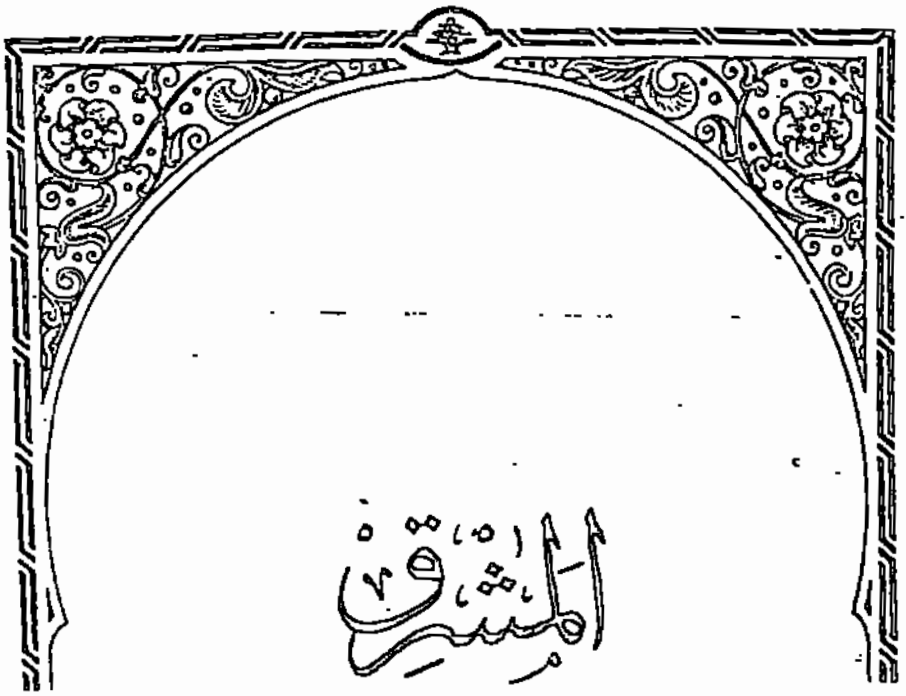

السنة الثالثة والعشرون

ت ٢ - ك ١ ١٩٥٩

ولي من لبنان

يقلم يوسف ابرهيم يزبك

في الصفحات التالية سيرة وليّ صالح من لبنان هو الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي ، سليل الاسرة التنوخية العربيقة التي جاءت من معرة النعمان وضربت في ربوع الشوف ، وكان اسمها : الغرب منذ نيف وستة تقريباً ، ثم امتد سلطانها إلى المناطق والمدن المجاورة حتى صارت صاحبة الشأن الاول في قسم كبير من لبنان الحالي ، وكان من سلالتها ابطال وحكماء وادباء وفنانون وذوو فضل ومعروف ، اعظمهم جميعاً صاحب هذه السيرة الامير السيد جمال الدين عبد الله الذي يكرمه عقّال الطائفة الدرزية تكريماً بالغاً ويعتبرونه ولياً كريماً ، ويستند شيوخ الدين عندهم الى مؤلفاته القيمة في تفسير شؤونهم المذهبية ، حتى انهم ليعدّونه المفرد العلم في هذا المضمار .

للامير السيد جمال الدين عبدالله مقام في بلدته التنوخية العريقة عبيه ، يزوره كثيرون من مختلف المذاهب والنواحي القريبة والبعيدة ويتبركون بسيرته النقية

ومآثره الانسانية حتى ان مجاوريه من نصارى الشوف كانوا قبل الحوادث المشؤومة التي فرّقت في منتصف القرن التاسع عشر بينهم وبين اخوانهم الدروز ، بعد ان كانوا كأنهم ابناء اسرة واحدة ، يرون في الامير التنوخي رجل مكرمات ومبرات فيزورون مقامه لطلب شفاعته[1] .

يؤلمني القول ، بعد هذا ، إن معظم الذين يزورون مقام الامير السيد اليوم لا يعرفون شيئاً من حياته ، ويؤلمني القول على الاخص ، ان هذا الامام الجليل الورع الذي يعدّ مفخرة من مفاخر الجبل اللبناني المقدس مجهول من مواطنيه . وهذا هو السبب الرئيسي الذي حفزني الى نشر سيرة حياته هذه .

***

في المكتبة الوطنية في باريس مخطوط عربي يحمل الرقم ١٨٢١ ، ومكتوب عليه : « تاريخ حمزه » ، قال عنه دليل المكتبة المذكورة تحت عنوان « تاريخ مصر » ما ترجمته :

« تاريخ سلاطين مصر . مؤلف مكتوب على شكل حوليات ومنسوب (كذا) الى ابن اسباط حمزه بن احمد الغربي .

« هذا المجلد الذي تنقص منه صفحاته الاولى يبدأ في منتصف سنة ٩٢٦ للهجرة . مخطوط . عدد الصفحات ٢١٨ ، او الورقات اذا شئت ، لان كل صفحتين ترقم برقم واحد ، عدد الاسطر في الصفحة ٢١ سطراً . طوله ٢٠ سنتيمتراً . عرضه ١٩ ½ سنتيمتراً . مفقوده مع بعض ورقات من اوله . » اه

وعرفه بروكلمن بما يأتي :

« المخطوط رقم ١٨٢١ تاريخ مصر . حمزه بن احمد بن اسباط الغربي (نسبة الى غربي لبنان) ، الفقيه الدرزي المتوفى ٩٣٦ هجرية ١٥٣٠ مسيحية . تاريخ عام للاسلام . الجزء الثاني منه : نسبة آل تنوخ ، من كتاب صدق الاخبار ، وهو تاريخ امراء الدروز من النطقة الغربية ، عن صالح بن يحيى . مخطوطة بيرونية رقم ١٢٥ » اه .

قلنا : وفي هذا الجزء الثاني نشر حمزة بن سباط اخبار التنوخيين امراء

---

١) اخبرني المؤرخ الجليل الاستاذ عارف النكدي ، نقلاً عن السلف ، ان داهية عصره المرحوم الشيخ سعد الخوري مربي الامير يوسف الشهابي ومستشاره الفذ في حكم لبنان كان يقول : « الامير السيد قديس » .

الغرب اللبناني مما كتبه عنهم ابنهم البار صالح بن يحيى التنوخي[1] اجزل الله ثوابه ، وزاد حمزة عليه ما عرفه بنفسه وما سمعه من معاصريه عنهم ، ولا سيما عن ابيه الفقيه شهاب الدين احمد بن سباط العاليي . وقد بسط ذلك كله عند وصوله في كتابة تاريخه الحولي الى سنة ٨٧٤ هجرية (١٤٦٩) ، فكان كلامه عنهم في ثماني عشرة ورقة (٣٦ صفحة ، من ورقة 180 الى ورقة 198)[2] ثم اخذ في سرد سيرة الامير السيد — وهي النفيسة التاريخية التي ننشرها هنا — فجاءت في عشر ورقات ونصف الورقة (٢١ صفحة ، من ورقة 198 الى 209)[3] ثم الحق بها بضع صفحات عن تلاميذ صاحب السيرة .

اصاب بروكلمن في قوله بان هذا الكتاب هو « الجزء الثاني من تاريخ عام للاسلام » وضعه حمزة بن سباط ، فالمؤلف نفسه اشار في مواضع كثيرة منه الى جزء اول سبقه ، قائلًا ما معناه : « إذ كنا قد افردنا في الجزء الاول حاشية في ذكر آل تنوخ » ، او : « مما اشرنا اليه في الجزء الاول من كتابنا هذا » ، او : « وقد ذكرنا في الجزء الاول من هذا التاريخ » ، او ما شابهه . ومما يؤسف له ان الجزء الاول المشار اليه مفقود ، وقد فتشتُ وفتش سواي عنه في باريس ولبنان فلم نقف له على اثر[4] .

وخامر كاتب دليل المكتبة الوطنية في باريس ارتياب في ان يكون حمزة ابن سباط هو واضع المخطوط ، فقال في تعريفه انه « منسوب الى ابن سباط حمزة » ، وهذا الارتياب لا مبرر له لان حمزة ذكر مرات عديدة انه هو صاحبه ، وقد ختم الكتاب بهذه الكلمة : « ومصنف هذا التاريخ حمزه ابن احمد ابن سباط الغربي ، والحمد لله وحده ، امين » . وكذلك قال في موضع آخر ، وهو

---

١) روى المرحوم الاب لويس شيخو اليسوعي في مقدمة « كتاب تاريخ بيروت » انه عثر على مخطوط تاريخ صالح بن يحيى في خزانة كتب باريس السمونية ، فنشره في المشرق سنة ١٩٢٥ وطبعه على حدة بعنوان : « كتاب تاريخ بيروت » ، ثم اعاد طبعه مصححاً سنة ١٩٢٧ ، وهذا المؤلف الغني صار اليوم نادراً .

٢) و٣) هذا الترقيم مزاد على الصفحات من موظف في المكتبة الوطنية في باريس ، على الارجح ، ان المخطوط بلا ترقيم في الاصل .

٤) في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت ، في قسم المخطوطات ، موجز صغير جداً لتاريخ حمزة بن سباط نذكره بعد ختام هذا البحث .

يذكر وفاة ابيه :

« وفي سنة سبع وثمانين وثمانماية (١٤٨٣ مسيحية) كانت وفاة الفقيه شهاب الدين احمد ابن عمر بن صالح الشهير بابن سباط ، والد مصنف هذه الترجمة » .

قلنا : اما ان يكون حمزة قد نقل بالحرف ، او الايجاز ، عن مؤلفين قبله ولم يذكر اسماءهم فهذا صحيح ، وانه لعمل مؤسف غفر الله له ! ولكن مهما يكن من ذنبه في سرقته فنحن مضطرون لان نرى فيه مؤرخاً جزيل النفع بالنسبة الى ما كتبه عن الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي ، رضي الله عنه ، فحمزة بن سباط ، وحده على ما نعلم ، قد وضع مثل هذه السيرة المسهبة التي ننشرها هنا ، وصفحاتها مليئة باخبار الولي اللبناني ومواعظه وآرائه الدينية والزمنية ، ولولا حمزة في تاريخه هذا لما عرفنا عن قديس الشوف ما سنعرفه في الصفحات الآتية .

وفي هذا المجال ، في معرض الكلام عن الولي التنوخي ، باستطاعتنا ان نثق بقول « المصنف » ، فوالده الفقيه شهاب الدين احمد بن سباط كان من تلاميذ الامير السيد ، وقد اخبرنا ابنه حمزة ان اباه « كان خطيب جامع عاليه » وقد عايش الامير السيد واشترك في تعليم كثيرين من تلاميذه ، وانه « كان إمامه » ، فاخبار ابنه حمزة عن الولي التنوخي منقولة ، والحالة هذه ، عن والده وهو صالح للرواية واهل الثقة ، مما يجيز لنا ان نتقبل كلامه مطمئنين .

***

وبعد ، فكلمة عن نسخ هذا المخطوط وعن مالكيه الاولين :

في السطر الاخير من الورقة الاخيرة (٢١٨) قال الناسخ :

« وكان الفراغ من نساخته خار الخميس ، ثلاثة ايام في شهر اسباط الخير سنة ثمانين بعد الالف ومصنف هذا التاريخ حمزة ابن احمد ابن اسباط الغربي . والحمد لله وحده آمين . »

وفي سطر جديد :

« وكان المتنى في كتابته الشيخ ابو نوفل ابن الخازن ، هناه الله تعالى زمان طويل آمين . »

وفي سطر جديد ، وبخط كبير جداً :

« كمل الكتاب ، تكاملت ابدًا السرور لصاحبهُ ، وعفا الاله بفضله وبجودهُ عن كاتبه ، قال : ان مثلا يفرح الملاحون اذا شاهدوا البر ، والنازحون حين يروا الوطن ، كذلك يفرح الناسخ بتمام الكتاب والله اعلم » .

وفي سطر جديد ، وبالحرف الصغير الذي كُتب به المخطوط :

« علقه بيد الفانيه العبد الفقير الى الله جرجس ابن موسه ابن جرجس ابن القسيس الياس من قرية اميلا ، غفر الله لهُ والوالديه ، ومن قرى وترحم عليه يكون لهُ نظيره ذلك .

وكتب برسم الشيخ نادر ، ابن توفل ، ابن خازن ، ابن ابراهيم ، ابن مركيس ، ابن الخازن ، من قريت عجلتون كسروان ، من اعمال بيروت ، هناه الله به زمان طويل . وهو من مالهُ من دون غيرهُ . ودعينا لهُ بالهنا والبقا ودوام الارتقا .

« وكان النجاز منه نهار الخميس عشرين يومٍ خلت من شهر رمضان المبارك ، من شهور سنة ثمانين والف للهجره احسن الله اتمامها بالخير امين ، والحمد لله وحده » اه .

وفي اعلى الهامش وبخط آخر :

« ودخل في ملك الفقير الياس ابن يوسف اده بالشراء الشرعي سنه ١٢١٠ هـ . »[1]

يلاحظ القارئ ان الناسخ[2] جرجس المعادي ارّخ ، في المرة الاولى :

«الفراغ من نساخته نهار الخميس ثلاثة ايام في شهر اياط الخير سنة ثمانين بعد الالف» .

ثم أرّخ مرة ثانية في ختام النسخ :

---

١) لا نعرف الشخص (الخازني) الذي باع المخطوط ... والمعروف ان هذا السياسي المتأدب كان يعنى بشراء الكتب النادرة وقد جمع مكتبة قيمة ورثها عنه ابنه نصيف ثم انتقلت الى ابن نصيف الذي مات كاهلا ... خوري جرجس اده . والخوري جرجس المذكور هو الذي باع الكثير من مكتبة جده ومن مخطوطة انتقل منه الى المكتبة الوطنية في باريس ، رحم الله الناقل الذي اوصله او مكن امين حفظ فيه فلم يعبث به الجهل . . .

٢) كان خطه جميلًا ، ولكنه يبدو انه أُمّي ، او يكاد يكون ، فهو يرسم الكلمة رسماً دون ان يفحصها حتى انه يشوهها في اماكن كثيرة فيغرب معناها . وكان يكتب الذال والياء الاخيرة والتاء المربوطة مهملات (هذا هديان ، في ، الفتى ، الباقيه ، الفانيه ، الخ . . .) وينقط التاء الثلاثية نقطتين فقط (تر ، ثانون) ، ويقلب الظاء ضادًا (نضيف ، ضاهر) ، ولا يكتب الهمزة بعد الالف في آخر الكلمة (انبيا ، انقيا) ، ويصل التنقيط في كثير من الكلمات .

وقد صححنا ذلك في متنه تخفيفًا عن القارئ ، فليعرف . (ي)

« النجاز منه نهار الخميس عشرين يوم خلت من شهر رمضان المبارك من شهور ثانين والف للهجرة » .

والتاريخ الثاني (الهجري) يصادف الخميس في ١١ شباط ١٦٧٠

***

ارى واجباً علي عزيزاً ، وانا ابدأ بطبع هذه السيرة النفيسة ان اشكر السيد احمد الداعوق سفيرنا في باريس ، فهو الذي اوصى لي مدير المكتبة الوطنية ليسمح لي بالتفتيش عن المخطوط في تلك المؤسسة العظيمة الغنية بالمخطوطات النادرة .

واشكر Mlle D'ALVERNY صديقة لبنان ، والمحافظة في المكتبة المذكورة ، فهي ما ان عرفت اني لبناني حتى احاطتني بعطف كريم فساعدتني في التفتيش كثيراً حتى عثرنا على مطلوبي ، ثم عنيت مشكورة باسر النسخ بالمكروفيلم .

واخص باقوى عرفان الجميل صديقي سليم خير الله الملحق الاقتصادي في سفارتنا الباريسية ، وصديقي حنا يعقوب من موظفي وزارة التربية الوطنية اللبنانية ، فقد تفضلا بمراجعة المخطوط وتزويدي بوصفه بعد ان كنت قد دونت جميع ما احتاج اليه من معلومات عنه ، الا ان هذه المعلومات فقدت مني ، ومعها اوراق لبنانية نادرة ودراسات تاريخية كانت في المطبعة ، وهذه المطبعة نهبت في اثناء الحوادث المشؤومة التي عصفت بلبنان في السنة الماضية . واختم بشكر صديقي النائب ايليا ابي جوده الذي دفع النفقات كلها .

لهم جميعاً الثناء العاطر .

الحدث ، نوار ١٩٥٩

يوسف ابرهيم يزبك

الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي

بقلم حمزة بن سباط الغربي

نشرها يوسف ابرهيم بزبك

... كان (الامير علم الدين سليمان التنوخي) رجلا خير ، ذات عقل وسكون ومروة ووطاوة خلق وحشمة وصغر نفس ، فاولد الامير جمال الدين والدنيا عبدالله ، ثمرة الخيرات ومعدن البركات ومفتاح الصدقات ، المنعوت بحميد الصفات .

ثم اولد ايضاً علم الدين سليمان ابن محمد (ولدًا اسمه)[1] تقي الدين ابرهيم. وتقي الدين المذكور عرض له وجع دآء الاسد[2] وتوفا به ، بعد ان اولد (ولدًا اسمه) علم الدين سليمان ابن تقي الدين ، فكان حشيماً صاحب فراسة ولسان فصيح .

واولد علم الدين سليمان ابن تقي الدين : زين الدين عبد الرحمن ، وعلاي الدين علي ، وصارم الدين ابراهيم . فابراهيم قتل بارض كسروان مجاور نهر الكلب . واما زين الدين عبد الرحمن واخيه علاي الدين علي فبها ذات غصيبة (عصبية ؟) ومروة ، تقصدهما الناس في المحافل والمهمات العسرة .

واما ينبوع الخيرات الامير جمال الدين عبد الله ، اولد : سيف الدين عبد الخالق ، الاول ، وتوفي قديماً . ثم اولد ثمرة شجرة النور الامير سيف الدين عبد الخالق ، الثاني ، الذي ذكر وفاته اول هذه الترجمة ، وكان اولد الامير ناصر الدين محمد فتوفي قديماً . واما الامير سيف الدين عبد الخالق الثاني هو

---

١) تشابكت البيانات او سقطت كلمات في النسخ ، في محلات كثيرة حتى صعب الفهم او ضاع المعنى ، فاضطررنا الى التوضيح بزيادة كلمة ، او كلمتين ، بين هلالين ( ) .
وكذلك صححنا كلمات كثيرة كتبها الناسخ مشوهة ووضعناها بين معكوفين [ ] إشارة الى انها مصححة منا . وكذلك وضعنا بين معكوفين كلمات صعبت قراءتها ورجحنا صوابها . ثم فرغنا التسطير .
ان جميع التعليقات في ذيل الصفحات هي من الناشر .

٢) هو الجذام (بضم الجيم) : « علة رديئة تنتشر في البدن كله ، تنتهي الى تأكل الاعضاء وسقوطها عن تقرح ، وهو من الجذم بمعنى القطع » — اقرب الموارد .

الذي امتد عمره وظهر نشره . في مولده وقعت البشاير في البلدان ، وفرح به كل انسان . امه عايشة المشهورة ، ست العيش ، ابنة الامير سيف الدين ابو بكر ابن شهاب الدين احمد ابن زين الدين صالح ابن ناصر الدين [ورقة ١٩٩] الحسين ابن خضر ابن محمد . ولما شاع ذكر مولده بين الوارد والصادر ووفد[1] على والده الوفود ، وبذل في الافراح المجهود ، وتداعوا بالعهود ، واشرقت طوالع السعود ، مولده ثامن عشر شهر رمضان المعظم قدره ، سنة اثنين وخمسين وثمانماية[2] . فكان ابيض اللون مشرق بحمرة ، يميل الى شقرة قليلة لطيفة ، معتدل الراس والعنق ، حسن الفم ، به سهولة لطيفة ، معتدل الزندين ، حسن الكف ، سبط الاصابع ، رطب اللحم ، حسن المنكبين والقدمين ، قليل اللحم في الصلب والاوراك .

ولما بلغ سبع سنين مال في (الى) العلم والتعليم ، وتعلق بالحث والتكلم ، وحفظ العلوم ، ودرس المعلوم ، وآلف العلما ، ونظر في كتب الحكماء ، ورابط على الفضايل حتى سبق الاوايل . وكان صحيح العقل ، واسع الفضل ، سهل الخلق ، لطيف الكلام ، مليح النظام ، متواضع ، ورع ، قادر ، مقنع ، عظيم ، حليم ، عالم ، مقيم ، شجي[3] كريم ، ذكي ، زكي ، عفيف ، نضيف . حل بمدينة دمشق فخالط العلما . وجالس الفها . جرد[4] القرآن وجال في العلم اي ميدان . وتمكن في علم النحو واللغة ، وتعلق بالفقه ، ودخل في المنطق وسلك في الاخبار والروايات وعلم الحديث واظهر فنون .

وشاعت اخباره ، وارتفع مناره ، نتيج[5] دهره وفريد عصره ، عزيز النفس شريف الحدس ، ينصر المظلوم ، ملجا القاصدين وكهف الواردين .

وتوفي في شهر المحرم الحرام سنة اربعة وسبعين وثمانماية[6] ، وكان خطب عظيم ، وفادح عميم ، ارتجت له البلدان وتزعزعت الاركان . يوما يوم مشهود

١) خطأ في النسخ صوابها حذف واو العطف ، فهي : وفد .
٢) يصادف ١٥ من تشرين الثاني من سنة ١٤٤٨ .
٣) لعلها : سخي .
٤) الارجح انها : جوّد .
٥) لعلها : نسيج . وفي المخطوطة اليسوعية : نتيجة دهره .
٦) يصادف : تموز ١٤٦٩

اجتمعت فيه الخلايق ، وعلت الاصوات ، واهملت العبرات ، ودهيت المسرات. ثم خرج والده في محل الهيبة ، راكب جواد الصبر ، وسلم لله في الامر ، ووعظ الناس بالمواعظ الصريحة ، وناداهم بحفظ العقول الصحيحة ، وقال :

« سبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، له البقاء الدايم وهو العالم الحاكم ، وهو الواهب والاخذ ، وامرهُ الجازم والنافذ ، فله الحمد على ما اولى ، والشكر على ما ابلا ، اعطا ومنع ، وتكرم واوسع ، منهُ الامتنان ، وعليه التكلان ، واليه الايمان ، هو العظيم الجليل وانا القليل الذليل ، الواقف بباب الرحمة ، الطالب من الكريم مزيد النعمة » .

ولما دُفن ولده وقف للعزآء ، وكان لتعزيته نظام ، ولهيبتهُ احترام . ثم عاد الى منزله وامر باحضار الطعام ، وتدرع جلباب الصبر ، ولبس لربه حلل الطاعة ، ورضي لربهُ[1] باخذ الوداعة ، وقرى على الناس آيات العهود وسلم تسليم الموقنين ، واعتصم بالحق اليقين ، ووعظ بايات الله واخبار الانبيا ، وتبع سير الاوليا ، وذكر موت الانبيا والعظما ، وجعل موت ولده ما بدّية (كذا) وعبرة ، وقال :

« ايها الناس ، يطوي العمر الجديدان ولا فوت من الموت ، ولكم عند الله من الخير ما تكثرون. (و) من الشر ما تكسبون ، ونحن واياكم في قبضة مالك ، وهو المنجي برحمته من كل هالك[2] ، قبول اوامر الله طاعة وصبرا ، والانابة الى رحمته عزة ونصرا ، فطوبا لمن قبل اوامر الله طاعة ، وحمل مدة الحياة ساعة ، وركب جواد القناعة ، وعلق في الحكمة الزبانية فكرة لساعة ، وقيّد النفس بقيد الوداعة ، وجعل من حق الموت امانة الرقاد بتسليم الوداعة . ايجوز ان يتمرض العبد على ربهُ فيما ابدع ، او يحجر عليهُ ويغضب في قبض[3] ما اودع ، او يعمى قول الله فيما آتانا به وهو يسمع ؟ او يظن ان حكم الله وقدرهُ منهُ قاهر ومدفع ؟ ايها الناضرون اليّ ، أتظنون انّ صبري على فقد ولدي الصالح جهالة ، او ترك اعتراضي فيه على القضآء ضلالة ، او اني نسيت منهُ علمهُ وعزمهُ وحلمهُ وافضاله ، ورفقه وصدقه وطاعتهُ وصبره واحتماله ؟ كلا ، بل كان [ولد] صالح هبة الديان ، رايق حاذق فريد في طبقة عنوة الزمان . فالصبر العظيم مطية من اتقا ، والرضا والتسليم منارٌ من ارتقا . ايها الناس ، خلقكم واوسعكم نعمة بحر عطاياه ، وفرض عليكم [و 200]

---

١) في النسخة اليسوعية : من ربه
٢) « « : المهالك
٣) « « : رد

الحق ، وقبله منكم وارتضاه ، وناكم عن الباطل ، وحذركم من سخطه ، فويل لمن عصاه ، وعلقكم من سمايه باسباب معرفة سناه ، بل انتم كسكنى خلقها الله باراداته واعطاها سبع بحار ، فهي تغوص وتعوم وتزدق ولا تحوط لها قرار ، خلقكم من غير شي وعمركم بالرحمة ، وتقلكم من ضيق الدنيا الى فسيح نعمه ، اما تعرضون بالشفوق الرفوق الملي بالشفقة والرأفة ، القادر القاهر المعطي المانع الحاكم بالعدل والنصفة ؟ انظنون انكم اذا اعرضتكم[1] عليه في حكمه تبلغون مرادكم ، او تزعمون انكم اذا اهملتم طاعة مولاكم وركبتم هواكم تخلصون من بلاكم ؟ ايها الناس ، فانتم كثير سجون في قفص الارادة ، متحرك في طلب هواه فلا يجد مطارًا ولا قرارًا ولا زيادة . ايها الناس ، بلغ الصبر آخره ، وحكم في فيه (كذا) خالقه وقادره ، وعن قليل يظهر الجزاء ويعرف العامل عمله اوله واخره ، ولا يضيع مثقال ذرة بين يدي ناهيه وآمره ، يا فوز المتقين ! » .

ولا زال على مثل ذلك فيما يطول ذكر شرحه حتى اروى كظة الظما[2] واورى باصرة الماء ، وكفا الناس بالحكمة الباهرة والموعظة السافرة[3] .

ثم استمر في مكانه ، وجلس على مرتبة امكانه ، وجمع مجالسه العظيمة الممدوحة ، وبسط العلوم الواسعة وشروحها الموضوحة .

قال شمس الدين محمد ابن الصايغ يرثي الأمير سيف الدين عبد الخالق ، وقال يرثيه عدة مراثي ، منها يقول :

قف بالديار وحيها وناديها ... واطلب الى ربعها العالي وناديها
اما المعالي فقد ذكت مسيرها ... من بعد ما كانت بسيف الفخر باريها
يا عبد خالقك قد كنت رحمة ... فبعت فيوم من افتحي يراعيها
خير النفوس صغير السن حلوها ... وانكتب منها قاري لوجوهها

وهي طويلة ذكرنا منها هذه القصيدة . وفي المشار اليه يقول ايضًا يرثيه :

هوى اصابا الركن المشيدُ ... ومال وغاب ظلنا السيدُ
فقدنا ماجدًا فات المنادى ... فكاد لفقده رضوى يميدُ
فهذا بعده العباس وجهي ... اذ الهادي الى علمٍ فقيدُ
واضحى بالدم السفاح جفني ... وبين جوانحي حزني يزيدُ
امينًا كان مأمون الخفايا ... الى التقوى له قلبٌ وشيدُ

---

١) لعلها : اعترضتم
٢) كظة الظما
٣) في النسخة اليسوعية : الصادرة

وهي مرثية طويلة اجاد فيها . وقال فيه مراثي عديدة ، من ذلك :

هجرت الحما [فاغبر] من بعد[1] الحما ... واصفرّ منه بانهُ والاراكُ
واما جنان الخالد فهي ترخرفت ... لديك واشتاقت لقاك الملائكُ
وما كنت اهوى ان اراك مفارقاً ... يقل اعتراضي من تولاك مالكُ .

وله يرثيه ، وهي نحو ستين بيتاً ، منها :

ارى نجم افلاك السادة هاويا ... وسعد ربع الانس اصبح خاليا
تصدع قلبي من مصابي ولوعتي ... ويا نفس كدتي تبلغين التراقيا
فيا عاذلي دعني ورق لحالتي ... فاني عليلٌ ما وجدت مداويا

وله يرثيه واقال ، ومنها :

راعني بين القباب ... في الدجا نعي الشبابي
آه مما قد دهاني ... آه من ثقل المصاب
طالما قد راع قلبي ... في الرّبا نعب الغرابي
ليس يطفا حرّ ناري ... في الدجا برد السرابي

وهي طويلة اقتصرنا منها على ذلك . وله مرثية طويلة ، منها :

تعاظم وجدي بالفؤاد به مظنا ... وليلي طويل ما غمضت به جفنا
ومن ابن جفني في الدجا يعرف الكرا ... وقد ذاب قلبي من حرارته حزنا

وله يرثيه ايضاً ، حيث يقول في المعنى [و 2:1] :

دعني اللوم عاذلتي دعيني ... فقد اصبحت ذا قلبٍ حزينِ
اعنف في الأسى والام فيه ... وما لي في مصابي من معيني
وما نوح الحمام على هديل ... كنوحي في الدياجي فاعذريني
ولي وجد كمثل نار علٍّ ... مفجّمةٌ على فقد الحسيني
وما زالت سهام يدا الرزايا ... تصيب مقاتلي لدنوّ حيني

ورثاه علم الدين سليمان ابن حسين الصواف ، ومن اولها :

حمام اللوى في الدجن والليل حاديا ... يئن على تلك الربوع الجواليا
ربوع الهنا والانس اضحين للوى ... عليها بنات الحيّ يندبن ما يا

---

١) الاصح : بعدك

وهي طويلة اجاد فيها . ورثاه الناس مرات كثيرة ، وجرى الناس من فقده واصابهم مصاب شديد . هذا ، ووالده الامير جمال الدين يوعظ الناس ويشرح لهم قصص الاولين كما قدمنا ذكره ، حتى انه كان يوري النـاس من الصبر كانه لم يجزع عليه احتسابا لوجه الله تعالى ، لانه كان في جميع مـا ذكرناهم شبَّه الجوهر المكنون ، او كانه البدر التام بين منطقة النجوم ، او شبَّه البحر المحيط بين اهل زمانه تمتد منه البحور . وكان اوّل منشأه شبيه اشراق الشمس المنيرة عقيب احتدام الديجور ، فاشرقت بوجوده انوار الفزالـة ، فاوضح برهان الدلالة ، فانه اول ما ربي يتيماً مع والدته فظهرت نجلات الورع وهو صغيراً .

وكان مولده ثاني عشرين ربيع الاول سنة عشرين وثمانماية[1] فكان معتدل السمرة والراس ، بعيناه بعض عوزة ، معتدل القامة ، قليـل اللحم في الصلب والاوراك والبرقوبين ، نظام بنية صحيحة ، وكان قوي البدن صحيح النظام ، يديم الجلوس والإلتام ، كثير اليقظة ، عـذب المنطق ، فصيح اللسان ، خفيف الحُطرة ، متمهل الاعتدال ، وقوراً في مجالسه ، ثابتاً في مواقفه ، قليل الكلام في غير الحكمة ، لا يرى بهجة الا لزيه ، ولا يبذل مساه الا لقربه ، واذا مرَّ [غض] طرفه ، وان مشا اوسع خطاه ونصب قامته ، صحيح العقل ، سليم الذات ، قليل الهفوات ، اوّل ما رغب في حفظ الكتاب العزيز فختمه سريعاً ثم جوده[2] ، ثنياً ودرسه . وكان يطوف القرى في طلب العلم والحديث وهو صغير السن ، وتورع يافعاً (الى) ما لا تصل الى ورعه الكهول من اولي العلم .

ومما نقل عنه انه تجنب كثيراً من جهات اقاربه ، ممن صدر عنـه انه كان مخالط الدول وجباية الاموال . وكان يجيء المصباح وبه زيت فيطفيـه ويجلس على الظلمة ، ولا يرى انه يقرى في الكتاب العزيز في نور مصباح فيهُ زيت مشبه .

وكان يطوف البلاد في طلب العلم ويزور الاجواد في طلب الافادة ، وذلك قريب ارشاده وبلوغه مبالغ الرجال .

---

١) يعاقب : ٩ نوار ١٤١٧

٢) الارجح انما : جوّده

ولما ثبت جنانه وشيد بنيانه، و[تسامى] بالسبق على الاقران ، وطرح الدنيا واشتغل بعبادة الرحمن ، فجرّد[1] كتاب الله العزيز المقدس المطهر ، ودرسه واتلاه غيباً وداوم الدراسة ، فطبعت فصوله وآياته واعشاره وسوره وسطوره في قلبه حيث لا يغيب عنه منه لفظة واحدة ، مع دراسة بالغة دائمة ، لا يشغله عنها شاغل لانه كان جعل له راتب دراسة الى حد معلوم ، كل يوم جديد يقرا درسه غيباً من غير مانع يمنعه من جميع حوادث الدنيا . ولو عرض له اي عارض كان لا بد له من كمالة درسه غيباً الى ذلك المكان المحدود ، لا يشغله عنه شاغل ، لا شدة تحدث ولا رخا ولا فرح ولا حزن ، حتى يتم درسه دائماً لا فسحة فيه، فانطبع الكتاب العزيز جميعه بآياته وحروفه في قلبه انطباع النقش على الحديد لاستمراره [و202ظ] فصوله في كل يوم جديد ، وادمانه الدرس بعزم شديد ، وبلغ في الدراسة حتى شاع ، وعنه ذاع .

وتحقق انه يقرا المكرم الشريف جميعه من اوله الى اخره مقلوب، فامتحنوه في ذلك فقرا منه سورة كبيرة من اطول ما في الكتاب العزيز : ومثل ذلك ان تبدا في سورة الفاتحة ، وقليل من لا يحسن يقراها ، واذا قصد الانسان يقراها مقلوب ، يريد لها افتكار ، فكيف جميع المكرم العزيز ؟ مثل ذلك قولك : « الضالين ولا عليهم المغضوب غير عليهم انعمت الذين صراط المستقيم الصراط اهدنا نستعين واياك نعبد اياك الدين يوم مالك الرحمن الرحيم[2] العالمين رب لله الحمد » . فكان يأتي على جميع الكتاب المكرم العزيز شبيه ما ذكرناه صفة ما تقول في سورة البقرة : « الكافرين القوم على فانصرنا مولانا انت وارحمنا واغفر لنا واعف عنا لنا به طاقة ما لا[3] » واشباه ذلك .

فكان يقرا جميع المكرم العزيز مقلوباً سرداً ، الدراسة الدائمة [؟] ثم جمع الشروحات والتفاسير من تفسير القرآن العزيز المكرم الشريف .

---

١) اضا ، على الارجح : جوّد .

٢) كذا كتبه ، وهو الاصيل الصحيح ، فاذا شاء قلبه وجب عليه ان يقول : « مالك الرحيم الرحمن » الخ . . .

٣) هكذا جاءت مشوهة في النسخ . وصحيح ما جعله مقلوباً هو : « ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » وهو ختام سورة البقرة .

وجمع كتب اللغة العربية مثل كتب الصحاح للجوهري ، ثم جهز الى الديار المصرية بسبب كتب المحكم ، وكذلك القاموس وغالب الكتب اللغوية حصلها وجمعها ، وكذلك سير الملوك واخبار الانبيا ، وكتب التواريخ ودواوين الشعرا ، والاخبار النبوية والكتب الفلسفية وكتب علم الفقه على المذاهب ، وكتب النحو وغيره مثل كتاب اخوان الصفا ، وغيره من غالب الكتب النافعة . حتى ذكروا وقال ممن يثق الى قوله : انه شاهد الخزانة وهي ثلاثماية واوبعين مجلد .

ثم جدّد غير ذلك مما لا يفهم . ثم بسط العلوم الواسعة ، وشرح غوامض موضوعها الشاسعة ، وكان يقرى الكتاب العزيز وشرحه ، ويتكلم في علم الفقه والحديث ويصحح الاخبار ، ويشيد الاسلام ويرفع للحق منار ، وكان له كرامات واسرار ، ولما ارتفعة اعلامه ظهرت احكامه ، وانصف الخصوم وقهر الظالم ونصر المظلوم ، وكرر الايات واوضح المشكلات وبلغ في العلوم الواسعة بعيد النهايات .

ولما كف عن الناس البلية وصالح بين الرعية ، وامر بالسداد وطول يد الاجواد وقهر الاضداد ومهد البلاد ، لانه لما بلغ في العلوم الدرجة السامية ، وابتدا اولا يامر وينشد بحفظ المكرم ، ودرسه الكبير والصغير ، ثم انه تنـ وآمر بعمارة المساجد في القرايا وتجديد ما عدم منها من الوقوفات . ثم انه حرج على القراة الصحيحة في القران المكرم ، ثم انه جلب الفقها الى النواحي ، واقام الخطب في الجوامع يوم الجمعة في كل قرية تكمل لعدة ، ثم جعل فقها معلمين تقري الاولاد الاحداث في اماكن عديدة . وكان يعطي اجرة التعليم عن جميع الايتام في جميع البلاد ، قريب وبعيد .

ثم انه نهى عن الخمر وجميع المساكر بجميع اوصافها ، وكان يحد الشارب والقاذف ، وينفي من [داوم] وخالف . فتابت الناس على يده واجابت الى اوامره ، وقطعت الكروم ونصبوا غيرها . وكان يكره بيع الزبيب الى ديار مصر في البحر ، وذلك احتياطاً انهم يحمروه خمرًا . وكان يقول : الاجدر والاليق ، انه يبتاع في البلاد للنقل والاشربة ، للاقساوية[1] واشباه ذلك .

١) نوع من الشراب اللبناني من التنج والدبس ، والعامة تسميه : بقسمه .

كمل الكتاب تمامًا ملتبدأ الشروع
لصاحبه وعفا الله بفضله وجوده
كاتبه قال الذي ما يفرح الملاخوذ
شاهدوا الموت والنازحون حنين
يروا الوطن لذلك يفرح الناسخ
بتمام الكتاب والله اعلم

وكان يكره بيعه لمن يظن انه يستحل منه خمراً . ونهى عن شرب الخمر وبيعه وعصاره وحمله وجلبه ، وجميع ما يترتب بسببه ، لما جاء في كتاب الله بتحريمه وما نهى عنه رسول الله . وكان يكره تناول [شيء] من ثمن جميع المساكر ، ولا يقبله من صاحبه من حقوق له عليه . وكذلك كان ينهي عن ذلك لجميع من اجاب اليه ، فطاعته الخليقة واقتدت باوامره ، ورضت باحكامه الخصوم ، وطاعته [و 203] اكابر النواحي ومشايخ البلاد .

وكان له تلاميذ كثيرة في اماكن جزيلة يقولون ويامرون بأمره وينهيون[1] بنهيه في الخيرات والامور الشرعيات والحقوق الواجبات ، وكان قد جعل له من ايام الجمعة يوم معلوم ، تجتمع اليه اكابر الناس والتلاميذ ذوي الفقه والعلوم ، بسبب الافادة والمباحثة في غوامض العلوم الفقهية والروحانية والاخبار النبوية .

ثم امر التلاميذ الكبار الابرار : ان كل منهما يجعل عنده في بلده يوم معلوم من ايام الجمعة ، يفيد اهل بلده في معاني كلام الله تعالى في كتابه العزيز ، وقول رسوله الكريم ، ثم اخبار الانبياء واشعار الاتقيا ، ومناقب الصالحين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمشي على الطرايق الحميدة والمناهج الشديدة ، ويوصف لهم الجنة ونعيمها ويخوفهم النار وسعيرها ، ويشرح لهم ما تصل اليه قدرته في البعث والنشور ، يوم ينفخ في الصور ، ويبدي الخفيف ويوضح لهم معاني ايات المسطور . فسارعت الناس الى الامتثال لما رتبه لها ذكرناه ، ثم جعل لهم من بينهم امر وناهي في معنى ذلك ، فمن خالف ذلك او بان منه زلة او ذنب يوجب طرده من المجلس ، فيشهر ذلك عنه انه منفي ، فصار لذلك امراً عظيم في قلوب الناس ، وخوف شديد وهيبة بالغة ، من غير قيد ولا سجن ، ولا خوف قتل ولا ضرب ولا جراحة ولا خسارة مال . ثم جعل ممن ثبت عليه ذنب من الذنوب العظيمة امر بنفيه ، ولا ثم احد يكلمه . ومن جرت منه هفوة يحاسب عليها ويوعظ ، ومن كذب او التمس شيئاً من [اشياء] الناس يساوي دانق ، او شرب مسكراً من ساير المسكرات ، او اخطا في اموره خطاً ، يمنعه حضور تلك المجالس الذي رتبها . او احد ظلم

---

1) خطأ في النسخ ، صوابه : وينهون

احدا وتعدا عليه ، او تناول القوي من الضعيف في احوال الدنيا وما شاكل ذلك ، يمنعه دخول تلك المجلس المعين ، فصار اشد حرمة عند الناس من شرطة الحكام بالشنق والضرب ، ثم يهاب مخالفة اوامره اشد خوف من سطوات الملوك الدنياوية . وكان الرجل اذا جرى منهُ ذنب كبير وشهر عنه ذلك يلزم بيته ولا يجسر [يخرج] بين الناس حياء وخجلاً واحتساب الكلام ان فلان طردوه وانفوه ، فصار لذلك امرًا عظيم ، وهيبة ساطعة .

وظهرت هذه الاشارة في غالب البلاد على ترتيب هذه الصورة : في كل ناحية يجعلوا رجل جيد دين تقه عالم مفيد ، يقوم بمثل ذلك . فحسن احوال النواحي بهذا الترتيب وتجنب المفسد الفساد والحرامي السرقة وقل الحرام ، وكانت الفواكه تتمر وتذهب فلا يتعرض اليها احد ، وحسن امور احوال البلاد ، وكانت في ايامه في رخاء وطيب عيش .

ومن اشتهر عنه من التلاميذ الكبار انه اجتمع على احد او عرف احد وعلم به وطلبه ، يكون قدوم تلك التليذ عليه اشد من القدوم من بعضهم الى ضرب المقارع ، للخوف والجزع البالغ الشديد ، لانه اخذ هذه الاشيا من اخبار سيدي عبد الرحمن الاوزاعي الفقيه ، (الذي) كان مقيم بمدينة بيروت ، فتقدم عليه رجل من علما العراق من بغداد في طلب الافادة ، فسأله الفقيه الاوزاعي : في كم قدم من بغداد ؟ فقال : على البريد من نحو عشرة ايام . فقال له : تركب على خيل البريد في طلب الافادة ؟ لا افيدك ابدا . وطرده من المجلس ولم يمكن احدًا من التلاميذ بافادته ابدا . فرجع ذلك الرجل الى بغداد وعاد من بغداد ماشيًا حتى افادهُ وسمح له بالافادة .

فكان الامير جمال الدين يقتفي اثار الفقها والعلما ، واخبار الاولياء والزهاد والابدال ، ويحذي حذوهم في مجالسه . وكان لا يامر بشي حتى يمتثله ولا ينهي عن شي حتى يتجنبه . وكان لا يمكن ممن هو تحت امره في لبس القماش المفرط مثل الحرير [و 204] واشباههُ ، او المحلا المنسوج ، ولو كان من ذوي الايسار ، وانما يلبس ما يليق ويتصدق على فقراء المسلمين . ولا يركب قط في سروج محلاية ، ولا يلبس (الا) ما يليق . ويتصدق في قماش . وكان يحب لبس الابيض

والطرح الوسطاني . وكانت اموره جميعها في العدالة .

ومن احكامه : ان بعض جماعته كان له ولد ، فاهدا اليه شخصٌ من ذوي الايسار من متاع اولاده طقيةً خليعةً من قماش بخ ، صدقةٍ عنه لذلك الولد فلبسها ، فعلم بها (الامير السيد) فامر ببيع تلك الطقية واشترى لذلك الولد طقية من مالهِ تليق ، وكانت اغلا ثمن من الذي ابتاعت ، فأمرهُ بصرف ثمن الطقية المبتاعة على تلك الولد ، وذلك احتساباً من تجري الناس على اشباه ذلك ، والخروج على الاعتدال .

ومن احكامهُ : انه ظهر له عن بعض من يعزّ عليهِ ، واوصل الناس به انه تعاطا منكرًا في [السر] ، فاشهر ذلك بحضر من الناس ثم ضربه الحد بحضور جماعة ثم اذاع ذلك .

وشبه ذلك ان شخصٌ من الاكابر [ببعض] النواحي ، وكان ذي سطوة وقوة ، والناس اليه منقادين ، وله هيبة ووقار ، وكان زعيم قومه [والسلام] ، وكان من التلاميذ الكبار ومن اكبر المشايخ بالناحية ، وكان له كرم عنب بجاور كرم شخص ردي السيرة فاسد الخصال ، فارسل تلك الشيخ جماعة الى كرمه بسبب تشيله وتشيل دواليه ، فجعلوا في ارض ذلك الرجل بعض دوالي في حدود كرمه ، فلما راى ذلك الرجل الدوالي في ارضهُ فشالهم الى ارض كرم الشيخ وخرب نظامهم ، فصعب على الشيخ تجرّيه عليه بغير شرع ، فسعا به الى محاكم الناحية فقبض عليه وضربه ضرباً مبرحاً ، واخذ منه خمسماية درهماً واطلقه . فجعل ذلك الرجل ينهي ما جرى له للناس ويظهر المسبة ، فغضب الشيخ من كلامه ، ثم اقسم بالله انه لا يساكن ذلك الرجل في بلده ابدًا ما عاش ، فرحل ذلك الرجل باولاده وعياله وترك داره وجهاته واملاكه وسكن بعض القرايا . ثم جعل يورد قصته وما جرى له ، فقيل له : اما تشكيه الى شيخه الامير جمال الدين عبدالله ؟ فانه ناصر الحق . فقال ذلك الرجل : هيهات انه يستمع له بكلمة واحدة في حقه ، ومن هو انا عنده حتى ياخذ بيدي مثل ذلك الشيخ الذي هو اعز الناس عنده واجلهم لديه قدرًا واعلاهم محلًا وارفعهم عنده درجةً ؟ فقيل له : ايها الجاهل ، ما عنده كبير على الحق ، ولو كان على نفسه ام ولده . فرض الحق وكشفه واعلى صرحه .

ثم قدم (المضروب) عليه وشكا حاله اليه ، فقال له : لا يكون ذلك

صحيح ان ذلك الرجل تحدث منه ما ذكرت . فقال : تكشف البينة عن ذلك . فجهز احضر الشيخ وقال له : هذا الرجل يقول انك فعلت به كذا. وانهى له ما ورده . فقال : نعم ، هذا رجل ساقط ردي السيرة سفيه خائن كذاب ، سعيت به لمن ادبه وخصمه، فزاد في عتوه وكلامه فطاردته، واقسمت اني لا اعود اساكنه في البلد . فقال له الامير : انهي الي اول الحال[1] ، الدوالي كانوا موضوعين في ارضه ام لا ؟ قال : نعم . فقال له : اذا تقلهم من ارضه ما عسا كان يجري ؟ قال : تمدى طوره وفعل ذلك بيده . فقال بحقه : اما قولك انه رجل ساقط ردي السيرة خائن كذاب ، فله مجازي لا يخوف ولا يجور . ثم انك سعيت به الى من لا يحسن طرايق المدالة فسفه واخذ من ماله ما عسى ان عايلته محتاجين اليه ، ثم طردته من وطنه قهرًا فهذا فعل الجابرة ، هذا لو كان [و 203] له ظفرًا يحك جلده ما تجريت على ذلك . فاين شروط الديانة ، واين حفظ الامانة ؟ اعلم ايها الرجل ، ان كنتَ ممن بقيت تركن الينا ، او مقيمٌ معنا ، او سامع كلامنا ، او تقول بقولنا : فاني حكمت عليك انك ترد اليه الخمسماية درهم التي اخذت منه من اسبابك . وان هذا الرجل يرجع الى بلده ويسكن غصباً عليك . واما عينك انك ما تساكنه فقد افتريت على نفسك ، فان احببت تحتش وتساكنهُ ، او تتوجه حيث شيت . فان احببت مفارقتنا واخترت مرافقة غيرنا ، فامنع فيما رسمنا لك به وخالف .

ثم التزم ذلك الشيخ ، فلما ظهر له منار الحق ، فاعطى ذلك الرجل خمسماية درهماً من ماله ، واستبرى الذمة منه ، ثم بر يمينه انه رحل الى قرية مجاورة بلده ، وعمر بها العمار وسكنها وتناول جهاتهُ حتى مات بها .

فلما ظهر ما فعله (الامير السيد) في ذلك الشيخ الذي هو عين اعيان البلاد ، وكان يقدر يظاهيه في احوال الدنيا ، وثم ما ذكرنا ، رسخت هيبته في قلوب اهل المعاملة ، الكبير والصغير ، والغني والفقير ، والاكابر والمقدمين، وعلت كلمتهُ وقوت حجتهُ ، وارتضت الخصوم بحكمه ، وكانت الخصوم تختصم في اطراف المعاملة [وينتني] حالهم حكام تلك الناحية ، فيقولا: بيننا

1) اي : قُصَّ عليَّ الحكاية من اولها

الامير جمال الدين الغربي . فلما يقدما عليه وبينهما قتلها ، يقول لها : انما جيتاني من شاسع البلاد فوجب علينا تصريح ما نقدر عليه لكما من الحق . ثم يبتدي لهما بالمواعظ الحسنة ، وتخويف اكل الحرام وبنعت لهما تصريف الحلال بمواعظ تصدع القلوب . ثم يحكم بينهما بما يراهُ شرعاً او مصادقة ، فيرجعا راظيين مسلمين شاكرين ، بعدما كانا اعدا فيرجعا اصدقا .

وكانت تاتيه الخصوم من اقصى المعاملة ، من جبة صفد الى اطراف حلب ، الى حدود طرابلس ، الى شوف بعلبك ، مع اطراف دمشق . لم يعلم من اين هما ، ولا من اي البلاد قدما عليهُ ، فيرجع كل منهما في نهاية الرضا ، بما وفقه بينهما ، شاكرين [قائلين] بكل جميل .

وفيما بلغ اليه : انه كانت الذمة من اليهود والنصارى تأتي على خبره وتحضر بين يديه في اختلاف بينهم في امر الدنيا ، فيسمعوا له ويمتثلوا ما يشير به ، فرجعوا راضين باوامره ، لانه كان اذا حضرت الخصوم عنده يبتدي بالمواعظ ، ثم ياخذ العهد على الاخصام انهم يسمعوا قولهُ ، ثم يلاطف بينهما بما يراه ، فيجيبوا الى قولهُ من غير داك ولا أكراه ولا اجبار ، لانه كان متحري من الميل الى جهة احدى الخصوم ، ولو كان ابعز الناس عنده . فبهذا ارتضته الرعية من الخاص والعام ، من قريب وبعيد .

ومن اخباره : ان رجل كبير وكان رييس قومهُ من ذوي الايسار والثروة والسطوة ، وكان يقدم عليه كل عام بهدية من فايض مدخله فيقبلها منه ، وكان يعتني به . ثم ان ذاك الرجل خطب امرأة من بلده ، فقبلت عليه واجابت سواله ، ثم ان ذلك الرجل خلع زوجته من عصمته ، وكانت ام اولادهُ وابنة عمه . ولما تم ذلك طلب انجاز الوعد في الزواج . فرجعت تلك الامراة وعن لها خاطر ، وقالت : لم ابقيت اتزوجه ابدا ، وذلك بعد اطلاق ابنة عمه . ثم جرى اختلاف ومنازعة في البلد فاشتد الرجل بتقطع البلد ، واخذ تلك الامراة غصباً ودخل بها . ثم توجه على جاري عادته بهدية ، فلما وصل وادخل الهدية الى الدار وحضر عليه فقال له :

« ايها الرجل الباغي ، الظالم لنفسه ، من هو مثلك يا بني جدية لانك مخالف ، فلا تجي اليّ ولا تدخل علي . ثم عزّ به ووبخه وقال : اتاخذ [و 216] النساء كرهاً باعوان

القلب ، ومال المال لهم ، ودمك حرام حرام . والكرة حرام . اما حضرت وسمعت وشاهدت. كاتب المقر عند قوله : « وولي تزويجها باذنها ورضاها والدها » ، والتداول بين الناس الرضا والقبول . اناخذها قهرًا ثم تجي الي ؟ واخبارك بشوم افعالك ترد عليّ . انظن اني ما اسمع اخبارك ولا حملت الركبان نحوي اسرارك ؟ اخرج من عندي مطرودًا ، ومن عند جميع من يقول بقولي طريدًا منفيا مبعودًا ، لا تقبل لك هدية ، ولا تلتمس منك عطية».

ثم آمر برد هديته عن آخرها وطرده من بابه .

وكان لذلك الرجل في بلد الامير عبدالله صديقًا ذلك الرجل[1] ، والهدية صحبته محمولة على دوابه ، فبان له منه اثار الكسرة [والجمدة] ، فقال له : اكشف لي عن حالك ، فقد تغيرت عليّ احوالك . فغلبت عليه العبرة وفاضت دموعه وجرت حتى بلت قماشهُ ؛ فقال له صديقه : ما امرك ؟ ثم جعل ينهي ما جرى له ويقول : « وعزة الله ، وجلاله ، لم يدخل عليّ في عمري كله فادحة اعظم منها ، ولا شدة اعظم مما تم عليّ في هذا اليوم ، فكان الموت اهون عليّ مما سمعت ورايت . يا هذا ، قدمت على الظلمة ، ثم انسجنت وتعاقبة ، وخسرت الاموال ، ومات لي ولدين ، رجال انجاب احرار شهما اخيار ، ودفنتهما وقاسيت شدايد كثيرة ، ولم يتم عليّ امرا اضعف ولا اعظم منه ، ولا اشد زفرةً ولا اجزل حسرةٍ ما تم علي من هذه الحادثة .

ثم ان الرجل حمل هديته وتوجه الى بلادهُ ذليلًا حقيرًا .

ومن اخباره ايضًا : ان رجلًا كان يخاف (منه اهل) السبيل ، وكان الامير عبدالله في اول عمره يسعى في طلب العلم وحسده في النواحي ، فرَّ في مكان مخيف ، فصادفه ذلك اللص فاخذ منه بعض ما كان معهُ ، ورجع ذلك اللص (وبلغه) انه من امراء الغرب ولم يعرفهُ ، وكان الامير عبدالله حدث السن فارسل اللص حوائجه كلها لما علم به واعتذر ، فتناست الاشياء ، وبعدة المدة ، فضرب الدهر ظرباته ان ذلك اللص تشاجر مع ابن عم له ، وكان ذلك الرجل يقول بقول الامير عبد الله في اموره ، وزادت بينهم المنازعة ، واشكا ذلك

---

1) الارجح ان كلامًا هنا سقط في النقل ومؤداه : ان الرجل ذهب عند صديقه الذي في بلد الامير .

اللص ان ابن عمه ظالمه ، فقيل له : لم لا تشكوهُ الى الامير عبد الله فانه لا [يراني] على احد عن الحق . فقال اللص : وكيف لي ذلك وقد سبق مني اليه ما هو كذا وكذا قديماً ، وكيف ينصرني على ابن عمي وهو عنده اعز اهل بلده ، مع ما سبق مني اليه . فقال له : يا مغرور ، لا يحوله حالٍ في الحق ، ولا يغيره مغير ، فانهُ يكشف الحق جهدهُ ويصرحه . ثم قدم اللص عليه ، وشكا حاله اليه ، فاحضر خصمه وسمع حديث الاثنين ، فترجح ان الحق توجه للصّ ، فاقبل على ذلك الرجل وقال له : كيف ترضى لنفسك بهذا ؟ انظاهي مثله ، وتقف معه ، وآخر الامر ان الحق ظهر له ؟ فاوصلهُ حقه والا توجه حيث شيت ، وان لم توصله حقه فلا تعود تدخل الينا . فقابل الرجل بالسمع والطاعة ، وجعلَ تسليمه حقه اربح بضاعة . فرجع ذلك اللص يثني ويشكر ، ولفضلهُ ينشد ، ثم جعل يقول : دخلت على نايب الشام في [جتزير] وضربت مقارع وكسارات ، بعد الحبس والاهانة ، وحضرة قدام الحكام والدول ، فما وجدت مكان اهيب من مكانهُ ، ولا حرمة ابسط من حرمتهِ ، ولا خجلة ابلغ من الحضور عليهُ ، ولا اعظم تخويف منها ، سبحان من البسه الوقار !

وكان الامير عبدالله كثير ما يعتني باخبار الاوليا والصالحين والعلما والزهاد ، مثل سفيان الثوري والفضل وابن عيينه [عينية ؟] ومالك ابن دينار وعبدالله ابن مبارك وحاتم الاصم وابن الشمال ، واشباههم في الاحكام والوعظ والزهد والورع .

وكان يورد : انهُ ذات يوم مرَّ فقيه بحاتم الاصم فقال له : يا حاتم كيف [و 207] تصلّي ؟ قال : « اقوم بالامر ، وامشي بالسكينة ، وادخل بالنية ، واكبر بالتعظيم ، واقرى بالتوسل ، واركع بالخشوع ، واسجد بالخضوع ، واسلم بالنية ، وامثل الجنة عن يميني والنار عن شمالي ، واقول في نفسي : ان الله حاظر معي ، واني لا اصلي صلاة بعدها . » قال ، فالتفت الفقيه الى اصحابه وقال : « قوموا بنا نعيد صلاتنا ، فما فينا من يصلي » .[1]

وكان ينهي عن التعلق باشغال الحكام ، وكان لا يخنح الى احد من اجنادهم ، وينهي عن الوقوف بابوابهم ، وعن التماس الرشحة من متاعهم ، [ويعلم] الناس

1) رويت في النسخة اليسوعية باسلوب آخر

الخيرات ، وينهاهم عن المحذورات ، وكان يكثر من القول : « احظ (اجعل ؟) العلم دليلك ، والورع مشيرك ، والحلم وزيرك » .

وكان يورد الاخبار الصالحة عن الزهاد في الوعظ البالغ ، ويورد الامثال . ومن ذلك مما وجده من اخبار عمرو بن هبيرة الفزاري لما تولى العراق واضيف اليه خراسان ، وذلك في ايام يزيد ابن عبد الملك فاستدعى عمر بالحسن البصري والشعبي وابن سيرين فقال لهم : ان يزيد خليفة الله في ملكه ولايي (ولاني ؟) ما ترون . فقال الحسن البصري : « يا ابن هبيرة ، خف الله في يزيد لا تخاف يزيد في الله . ان الله يمنعك من يزيد ، وان يزيد لا يمنعك من الله . ويوشك ان يبعث اليك ملك فنزالك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك ، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . »

فكان يدعو الى سبل الخيرات وتقتدي به اكابر الناس . وكان ينهاهم عن الدنيا ويرغبهم عن[1] الآخرة . وضرح لهم الاعمال الصالحة ، وباعد ما بين قلوب الاشرار والاخيار ، ونهى عن الشهوات والشبهات والخمور والمسكرات ، وخرق بالحق العادات ، فمحامده كثيرة ومناقبه جزيلة يطول شرحها .

وكان يسهر الليل في طاعة ربه وينام ثلثه ، وكان يجلس في غالب لياليه لا يشتغل باحوال دنيا ، ولا حكايات في غير حكمة . ثم يوعظ ويفيد من حضر الى نحو ثلث الليل ، ثم ينام ثلثه ، وينام من في المجلس ثم يقوم الثلث الاخير من الليل فخارته في طاعة ربه . وذلك دابه دايماً بعد فراغ درسه .

وكان لا يتكبر على طالب علم ، صغير كان او كبير . وكان يقيد كل احد على قدر قواه . وكان اذا مر به الصبي الحدث السن يرغبه في طاعة والديه ، ويخوفه المعصية ، وينهاه عن اللعب والبطالة ، ويحثه على تعلم الخط . وكان يقول لوالد الصبي : اجعل لك عليه هيبة حتى يبقا يخاف من الله ، لان الولد لا يعلم خشية الله ويخاف والده اكثر ما يخاف ربه . وانه يمنعه عن معاشرة الحمقا ، ويامره بحفظ الكتاب العزيز ، ثم يجعل له جعلا على حفظ معلومه ، ترغيباً في الحفظ . وكان لا يامره النظر الى شيء في غير قدرة الله تعالى .

ومن اخباره : انه مر ذات وقت ، قريب حصن لبنان ، الخراب المشهور

1) كذا ، وهو يريد : في الاخرة

من عجايب العماير في حسن النحيت واللحام ، وكان صحبته جماعة ، فقالوا : ان حسن عند الامير النظر اليهُ ، لانه من عجايب العماير المتقدمة . فقال : ما لنا بذلك من حاجةٌ . فقالوا : المكان قريب ، وهو مكان شرح يبسط النفس ويشرح الصدر ويقوي الفكر . فتوجه اليهُ فوجده من عجايب العماير في لحاماتهُ ، لان القطع الصخور العظام لحامهم لا يسع راس المسلة تدخل ، ولا الابرة الكبيرة . ووجد حوله الاشجار قد نبتت ، وقد دخلت منها شروش حقيرة في تلك اللحامات ، فشقت تلك الصخور حتى صار قدم الانسان ينوص فيه الى ركبته . فقال (الامير السيد): قد استفدت من هذه الشجرة فايدة ، وذلك ان من استصغر الذنب الحقير اليسير الذي لا يشعر به صاحبه ، لانه يعمل شبيه ذلك ، وان الحقير يكبر فلا يستصغر احدٌ ذنباً ابدا ، ويقول هذا صغير .

ولو انهينا اوصافه الحميدة لكان اعذب [و 208] من سير الملوك الاوايل . فذكرنا اليسير من خصاله المحمودة ، واياتهِ المشهورة الموروثة ، لانه اشهر العلما ذكرًا ، واكبر النبلا قدرًا ، واحد الافاضل المشار اليهم ، وفرد الاماثل المعتمد في الامور عليهم ، لانه كان كالشمس للدنيا والعافية للبدن ، فهل [لهذين] من خلف ؟

ولما توفي الى رحمة ربه القدير السميع البصير ، اتفقت التلاميذ وجعلوا مشيرهم بعده ابن عمه الامير سيف الدين ابو بكر ابن الامير سيف الدين زنكي ، كما تقدم ذكره . وعضدوه التلاميذ من جميع النواحي والبلدان ، فقوي امره ، وقوى هو ايضاً نفوذ كلمة التلاميذ في البلاد ، فاستقامت بعده احوال البلاد مديدة . وتوخر في داره الشيخ زين الدين جبرايل ابن الشيخ علم الدين سليمان ابن خسين ، من قرية المعاصر الفوقا من بلد صيدا ، وكان عالما ديناً فطناً نبيها [اقتبس] من طرايقهُ واقواله واحكامه ، ومسك نظام الناس ، وحذى [حذو] استاذه ، وأمر بامرهِ ، ونهى عن نهيه ، وكان عوناً للامير سيف الدين فيما ذكرنا ، مع نظر اكبر التلاميذ واورعهم وابسطهم يدًا واتمهم قدرًا : الشيخ شرف الدين علي ابن ابو ريدان ، من قرية الفاقين ، المشهور بالفضل والاحسان والذكا والفراسة البالغة . فحسن حال البلاد به ، عشاركة

بقية التلاميذ المشايخ ، والاكابر ببلد الغرب وغيرها من المعاملة ، الى حين وفاتهم ، وسياتي ذكر من يتوفى منهم في سنته .

ولما توفي الامير جمال الدين عبدالله ابن سليمان حدث في المعاملة رجة عظيمة وفادحة عميمة لا يعهد مثلها ، ولا تقاس نهايتها ، لان الناس [تشككت] وحارت لعظم مصابهم وجزيل حسابهم ، كيف يكون امر الناس بعده ، فان الالباب حارت ، والخطوب جارت ، والحسرات ثارت ، وارض الزكاة بارت ، [ورحى] الخراب دارت ، ووفود الشرور زارت ، وركبان الخير سارت ، وخيل الظلم اغارت ، وبنير الحق اشارت ، وباعتماد الباطل صارت ، وطيور الاخلاص طارت ، ولاجنحة العقول عارت ، وتنانير الفتن بفقده فارت ، وعجول الآفات خارت ، فهل نقول : الجبال مادت ، لما ذات شخصه الكريم وارت ، وله الجنان ذادت ؟

وكان يوم دفنه يوماً عظيم ، ارتعدت فيه الفرايض ، ونكسة الروس ، واشتد الوجد والبوس ، عمياً بالهموم ، متراكما بالغموم ، شاملا بالعموم . وكان يوم عزاه يوم مشهود ، اجتمع في يوم واحد نحو سبع آلاف نفر ، وكان عدد مفروم اعزاه من اللحم ، بالرطل الدمشقي ، ستماية وعشرين رطلا ، ومن الدقيق طحين نحو ثلاث غرايز بالكيل الدمشقي . ولم يصرف من ذلك على اهل البلاد الغرب ، انهم كلف تما ذكرنا ، بل صرف على الغرباء من المعاملة .

وجملت الناس تاتي بالمراثي في وصفه شيا يطول شرح ذكرها ونسخها ، وذلك مراثي كثيرة من جهات عديدة . وجملوا له تواريخ يوصفه ، من ذلك للشيخ علم الدين سليمان ابن حنين تاريخ اجاد فيه ومراثي عديدة . ولغيره تواريخ ومراثي جزيلة ، ونسختهم نحو اثني عشر كراس في ربع بلدي ، وهم موجودين . ولكاتبهُ حمزة ابن الفقيه احمد ابن سباط ستة مراثي من جملة ذلك في ذكر مناقبه بما وصلت اليه الطاقة ، فاعرضنا عن ذكرها ونسخها في هذه التاريخ خوف الاطالة . ومع ذلك كان اول نظم كاتبهُ ، لم يكن له خبرة في نحو ، ولا عروض ، ولا لغة ، بل طبعاً وجبلًا بفوامض عارضه ، ثم ان ذلك اول شعر قاله كاتبه في حدوث (حداثة) سنه ، فاحببت ان لا اذكره في هذا المكان من اسباب ذلك .

وكان وفاته نهار السبت بعد العصر ، سابع عشر جمادى الاخر سنة اربعة وثمانين وثمانماية »[1] .

واما ذكر تصحيح نسبه وهو :

« الشيخ ، الامام ، العامل ، العالم ، الورع ، التقي ، المفيد ، الزاهد ، العابد ، المخلص ، الرباني ، المحقق ، الفاضل ، اللبيب ، السيد ، الكبير ، امير الامرآ النجباء ، جمال [و 209] الدين والدنيا ، عبدالله ابن سليمان . وهو (ابن) الامير علم الدين سليمان ، ولد الامير بدر الدين محمد ، ابن الامير صلاح الدين يوسف ، ابن الامير سعد الدين خضر ، ابن الامير نجم الدين محمد ، ابن الامير جمال الدين حجي ، ابن الامير شمس الدولة كرامة ، ابن الامير ابو المشاير ناهض الدولة بحتر ، ابن شرف الدولة علي ، ابن الحسين ، ابن ابي اسحق ابراهيم ، ابن ابي عبدالله محمد ، ابن علي ، ابن احمد ، ابن عيسى ، ابن جهير (جهر) ، ابن فنوخ ، ابن قحطان ، ابن عرف ، ابن كندة ، ابن جندب ، ابن مذحج ، ابن سعد ، ابن طي ، ابن تيم ، ابن النعمان ، ابن المنذر ملك الحيرة من قبل كسرى ويعرف ابن ماء السماء ، وهو المنذر ، ابن امرئ القيس ، ابن النعمان ، ابن امرئ القيس المحرق ، ابن عمرو ، ابن [امرئ] القيس الاول ، ابن عمر ، ابن غارة ، ابن لخم ، ولخم لقب ، وقيل مالك ابن فهم ، ابن دوس ، ابن الازد ، ابن الغوث ، ابن ثبت ، ابن مالك ، ابن زيدان ، ابن كهلان ، ابن سبا ، ابن يسحب ، ابن يعرب ، ابن قحطان . واما عمر ابن عدي ، متصل نسبه الى آباد ابن نزار ، ابن معد ، ابن عدنان ، ابن [اد] ، ابن ادد ، ابن اليشع ، ابن الهميسع ، ابن [سلامان ، ابن نبت] ، ابن حمل ، ابن قيذار ، ابن اسمعيل عليه السلام ، ابن ابراهيم الخليل عليه السلام ، ابن ازر وقيل تارح ، ابن ناحور ، ابن ساروع ، ابن اسرغ ، ابن [راعو ، ابن فالغ ، ابن عابر] ، ابن شالخ ، ابن قينان ، ابن ارفخشد ، ابن سام ، ابن نوح عليه السلام ، ابن [لمك] ، وقيل لامك وقيل ومخ ، ابن متوشلخ ، ابن اخنوخ ، ابن [يارد ، ابن مهلاييل] ، ابن قينان ، ابن انوش ، ابن شيث ، ابن ادم عليه السلام » اه .

---

١) يعاقب : السبت في ٩ من ايلول سنة ١٤٧٩

مخطوطة الآباء اليسوعيين في بيروت

لتاريخ حمزة بن سباط عن التنوخيين

وبعد ، فهنا انتهى ما نقلناه من المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس عن الامير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي ، طيب الله ثراه ، مما كتبه حمزة بن سباط في تاريخه عن التنوخيين امراء الغرب (لبنان) .

وكنا قد اشرنا في ما تقدم لنا من تعليقات عليها مقتضبة في الصفحات السابقة الى ان في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت مخطوطة اخرى عن تاريخ هؤلاء الامراء التنوخيين لحمزة بن سباط (ص٦١١ الهامش) وهي موجزة جداً، كما ان في كلٍّ من مكتبة كلية اللاهوت للشرق الادنى ، ومكتبة الجامعة الاميركية نسخة اخرى اوسع منها واكثر تفصيلاً . وتقع النسخة اليسوعية في ست وسبعين صفحة (طول ٢٢ س ، عرض ١٥) وهي مكتوبة بقلم « السعيد الزند » ، وفي ختامها تسع صفحات عن الامير السيد رأينا ان ننشرها هنا اكمالاً للفائدة وهذا نصها[1] :

---

١) « ان هذه المخطوطة ، وقد اشرنا اليها في الصفحات السابقة باسم « المخطوطة اليسوعية » محفوظة في قسم المخطوطات تحت رقم ١٢٥ وقد كُتب بقلم رصاصي ، وباللغة الفرنسية ، على الورقة البيضاء التي في اولها ما ترجمته : ان « المؤلف كتب (تاريخه هذا) سنة ٩٣٠ (١٥٢٣) . ان نسخة عنه موجودة عند شكري ايبلا » ا هـ .

ونرجح ان هذا التعريف كتبه المنور له الاب شيخو ، فالخط يكاد يكون خطه . وجاء في « دليل المخطوطات التاريخية للمكتبة الشرقية في كلية القديس يوسف » تعريف ثان باللغة الفرنسية بقلم الاب شيخو نفسه ، هذه ترجمته : « تاريخ امراء تنوخ ، حكام المقاطعة اللبنانية المسماة بالغرب ، غربي صيدا وبيروت (كذا . . .) هؤلاء الامراء كانوا دروزاً ، ودرزياً كان مؤرخهم حمزة بن احمد الفقيه ابن سباط الذي عاش في آخر القرن الخامس عشر (كذا) . استوحى في اكثر الاحيان « تاريخ بيروت » لصالح بن يحيى ، الذي طبعناه سنة ١٨٩٩ – لا يجد القارئ (في تاريخ حمزة) معلومات جديدة ، الا عن البضع السنوات التي عقبت وفاة صالح . نسخ هذا المخطوط سنة ١٨٨٧ نقلاً عن مخطوط يخص شكري ايبلا من صيدا . الناسخ هو السيد سعيد زند ، احد معلمينا (بريد : معلمي كلية القديس يوسف) » ا هـ – ص ٢٨٥

قال : « واما السيد جمال الدين عبدالله ولد سيف الدين عبد الخالق فتوفي صغيرًا . ثم ولد اخاه فسماه باسمه عبد الخالق . ولما بلغ ولده عبد الخالق من العمر سبع سنين مال الى العلم والتعليم فطلع فريد عصره ونتيجة دهره ، وتوفي في حياة ابيه السيد عبدالله وله من العمر ثمان عشر سنة كما مرّ في اولى التاريخ. وكان بوته خطب عظيم وحزن عميم ، واجتمعت في عزاه الحُلايو واهلت العبرات وعلت الأصوات . وخرج والده عبدالله وقت دفنه وهو راكب مطية الصبر ، سلّم لله الامر ، ووعظ الناس المواعيظ الصريحه ، بالالفاظ الصحيحه ، وقال : سبحان الله والحمد لله ، لا حولَ ولا قوةَ الاّ بالله ، له البقا الدايم وهو العليم الحاكم ، وله الأمر الجازم ، فلله الحمد على ما اولى والشكر على ما ابلا ، اعطى ومنعَ وتكرّم واشبعَ . منه الامتنان وعليه الاتكلان ، وهوَ العظيم الجليل

قلنا : تبدأ الصفحة الاولى من هذا المخطوط بما نصه :

نسبة آل تنوخ في كتاب صدق الاخبار لحمزة بن احمد الفقيه ابن سباط في السنة ٥٧٠ يذكر ابن سباط :

« لما كان الامير ظهر الدوله ابن كرامه ابن بختر التنوخي في ايام الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي المتقدم عنه الشرح . وكان ظهر الدوله كرامه ابن بختر له عنده المنزلة الرفيعة في ايام الافرنج . وبعد وفاة ظهر الدولة اقاموا اولاده الثلاثة مقامه ، فرأسهم اليهم مقام الأفرنجي في بيروت واحسن اليهم الى ان كان عصر الايام دعاهم الى عرس ابنه لوفي حضورهم الى بيروت فارمى القبض عليهم وقتلهم الخ . . . »

واذا قارن القارئ بين ما نقل في هذه النسخة اليسوعية عما كتبه حمزة بن سباط وبين ما كتبه صالح بن يحيى عن نسب التنوخيين في غرب لبنان وبيروت وصيدا وما شاكل ، بين انه يوافق الاب شيخو على ما ذهب اليه من ان حمزة قد نقل عن سلفه ابن يحيى معظم اباته ، كما زاد على روايه صالح زيادات جديدة كانت بعد وفاة الامير التنوخي صاحب « تاريخ بيروت » .

وتمتاز النسخة اليسوعية المقتضبة عن النسخة الباريسية المفصلة بوضوح خطها الجلي ، ولكنها تكاد تحاكيها بكثرة الاخطاء .

ان عدد السطور في كل صفحة منها اربعة عشر سطرًا ، وهي مفرجة التسطير ، تبدأ مواضيها بحبر احمر . وكذلك كتب الناسخ تواريخ السنين بالحبر الاحمر .

ولنا عود الى حمزة بن سباط والى تاريخه والى النسخ المروقة عنه ، المحفوظة في باريس ، وفي بيروت : في مكتبة كلية اللاهوت للشرق الادنى ، وفي مكتبة الجامعة الاميركية ، وفي المكتبة الشرقية ، والنسخة التي نقل عنها الامير حيدر احمد الشهابي ، الخ . . .

والي[1] العبد الدليل . الواقف بباب [ص ٧١] الرحمة ، الطالب منه النعمة .

ثم عادَ بعد الدفن الى منزلهِ وامرَ باحضار السماط ، ولبس حلل الطاعة ورضي من ربهِ بأخذ الوداعة . وقال : ايُها الناس ، لا فوت من الموت ، فلكم عند الله من الخير ما تكسبون . ومن الشر ما تفعلون . ونحن واياكم في قبضة مالك الممالك ، وهو المنجيا من المهالك . قبول اوامر الله طاعة وصبرا والانابه[2] عزًا ونصرًا . فطوبى لمن قبل أوامر الله طاعة : وركبَ جوادًا للقناعة . وجعل مدّة من الدهر ساعه . وعلقَ في حملة[3] ربهِ فكرة لمأعة. وقيد النفس بعبد[4] الوراعه ورضّى بتسليم الوداعة . اي لا يجوز للعبد [ان] يعترض لربه فيما ابدع . او يغضب في ردّ ما اودع . او يظن ان لقضا الله مردا او مندفع . ايها الناظرون اليَّ ، اتظنون ان صبري على فقد ولدي جهالة ، او تركَ تعرضي للقضا ظلالة . او اني نسيت علمه وفضله وطاعته وصبره . فالصبر مطيَّة من اتقى ، والرضا والتسليم منارة من ارتقى . ولا زال [ص ٧٢] يروى الناس الحكمة الباهرة ، والمواعيظ الصادرة. حتّى تعجب كلمن حضر من ذلك الكلام .

ثم ان شمس الدين عبد الخالق ابن الصايغ ارثى عبد الخالق بهذه الابيات :

قف بالديار وحيّها وناديها	وانظر الى ربّا العالي وثاديها
ام المعالي فقد ركت مبانيها	من بعد ما كانَ سيف الدين باتيها
يا عبد خالقنا قد كنت راعيها	فبعدكَ اليوم من اضحى يراعيها
خير الدلوم صغير السن حاويها	والكتبُ منهاجها قاري وحاويها

وقال ايضاً :

هوّى اصابنا اركن المشيدُ	ومالَ وغاب طالعنا السعيدُ
فقدنا ماجدٍ فاقَ المنادى	فكان لفقده [رضوى] يميدُ
فاضحى بالدما السفاح جفني	وبين جوارحي حزنًا يزيدُ
اميرًا كان مأمون الخفايا	الى التقوى لهُ قلب رشيدُ

١) خطأ في النسخ ، صوابه : واني

٢) صحيحها : الانابة ، كما في المخطوطة الباريسية

٣) لعلها : حكمة

٤) صحيحها : بقيد .

ثم ارتاه بقصايد كثيرة قصدنا الأسهاب عنها.

وكان والده الأمير جمال الدين عبدالله السيّد يعظ الناس ويشرح لهم قصص الأنبيآء، [ص ٧٣] ويرى للناس كأنهُ لم يجزع من الصبر، لأنهُ كان يتجنب كلما يرضي الناس، ويقترب لكلما يرضي الله. ونقل عنه انهُ لم كان يلاصق اقرباه لطنه ان اموالهم مخالطة الدول، حتى انهُ لم كان يضي عليه مصباحاً به زيتاً من ارزاقهم، وكان لم يزل يطوف في البلاد ويزور الاجاويد اين اينما وجدهم. وحفظ الكتاب العزيز غيباً حتى لم كان يضي. عنه [خطبة] واحده. وكان يحفظ القرآن غيباً ويتلوه مقلوبا. وجمع كتباً كثيرة من النحو والفقه والاشعار وتواريخ الملوك. وقيل انهُ حصل عنده ثلاثماية واربعون مجلد. وشرح العلوم. فارتفعت اعلامه وظهرت احكامه، فانصف بين الخصوم ونصر المظلوم. وعمّر المساجد وجدّد الجوامع، وأمر في قراية القرآن في جميع البلدان. وانهى عن شرب الخمر وجميع المسكرات. فثابت الناس على يده واجابت الى أوامره. وكان يكره بيع الزبيب الى الديار المصرية ليلا يصنعوه خمرًا. وكان له تلاميذ [ص ٧٤] كثيرة في البلاد، يأمرون بامره وينهون بنهيه. وقد جعل لهُ في كل جمعه يوماً معلوماً تأتي الناس فيه ويدرسون عن يده ويتعلمون من علمه. ثم أمرَ تلاميذه الكبار والاتقيا الأبرار كلمن يجعل لهُ يوماً معلوماً ليعلم الناس به في بلدته. وكانت تأتيه الخصومة من ابعد مكانٍ فيحكم بينهم بالحق الصريح ويلزمهم في الثوت (؟) عليه ولا احد يخالف مقاله.

حكى انهُ لما ذهب الأمير جمال الدين الى دمشق فدخل يوماً على ابن الكشيح وقد ترحب به. ثم سأله عن بلاده وهو بها اسلام على التمام، فقال السيّد عبدالله: نعم، ويحفظون القرآن. فقالَ لهُ الافندي: فما تصلون؟ قال: ومن يقوم بغير صلاة؟ وقال: فكيف تكون الصلاة؟ فقال الأمير جمال الدين عبدالله: أقوم بالأمر وامشي بالسكينه، وادخل [بالنيه]، واكبر بالتعظيم، واقرى بالتوسل، واركع بالخشوع، واسجد بالخضوع، و [اسلم] بالنيّة، وامثل الجنة عن يميني والنار عن يساري، واقول في نفسي ان الله حاضر [ص٧٥] امامي، واني لا اصلي صلاة بعدها. قال: فالتفت الفقيه الى اصحابه وقال لهم: صلاتكم جميعها باطله!

وكان يقول : دع العلم دليلك ، والورع مشيرك ، والحلم وزيرك .

وقيل انهُ مرَّ يوماً بعمارة عظيمة فراى شروش الشجر داخلة ما بين تلك الصخور العظام الذي لم تكن المسلة تدخل ما بين الحجر والحجر ، فقال : هكذا تكون الذنوب ، فلا يستصغر (احد) ذنوبه لأنهُ تنشا الذنوب في الأنسان كنشو الشجر في البنيان .

ولما توفّي الأمير جمال الدين عبدالله في سابع عشر يوم من جماد الأخير سنة ٨٨٤ جعلوا تلاميذه المشير عليهم بعده ابن عمه الامير سيف الدين ابو بكر ابن سيف الدين ذنكي ، فقوى امره وطاعوه الناس ، ولكن كان لفقد الأمير جمال الدين عبدالله السيِّد رجه عظيمة في البلاد. واجتمع يوم دفنه امم لا تحصى من جميع البلدان ونظموا له مراثي وتواريخ عديده اقتصرنا عن شرحها . وقد [نسختهم] انا الفقير المصنف لهذا التاريخ : حمزي ابن محمد [ص٧٦] الفقيه ابن سباط[1] . وهم عندي الآن اثني عشر كراس ولي منهم ستة مراثي تعرف بي .

واما نسيب الامير جمال الدين عبدالله السيد ابن الأمير سليمان ابن الامير علم الدين ابن الأمير بدر الدين ابن الأمير صلاح الدين يوسف ابن الأمير سعد الدين خضر ابن الأمير نجم الدين[2] ابن الأمير جمال الدين حجي ابن الأمير شمس الدوله كرامه ابن ابو المشاير ابن ناهض الدولة مجتر ابن شرف الدولة علي ابن الحسين ابن [ابي] اسحق ابراهيم ابن ابي عبدالله محمد ابن علي ابن احمد ابن عيسى ابن جهر ابن تنوخ ابن قحطان ابن عوف ابن كندي ابن جندب ابن مدحج ابن سعد ابن طي ابن تميم ابن النعمان ابن منذر ملك الحيرة ويُعرف بابن ماء السما .

وقد تم نسخ هذا الكتاب بقلم السعيد الزند . وكان ابتداوه في ٢٧ كـ٢ وانتهاوه في ٣ شباط سنة ٧٧ (١٨) مسيحية . ١٤٥ هـ

---

١) ذكر حمزة اسم والده اكثر من مرة في المخطوط الباريسي وقال انه احمد ، لا محمد ، وقد نسخ هنا خطأ على الارجح .

٢) في هذا المخطوط (اليسوعي) ذُكرت ألقاب الامراء التوخيين دون اسمائهم ، وفي المخطوط الباريسي لم يصل اي اسم بل ذكرت الاسماء جميعها تتقدمها الالقاب .